جرونيباوم

GRUNEBAUM

كتاب «حضارة الإسلام»

Medieval Islam A Study in Cultural Orientalism

جوستاف أ. فون جرونيباوم Gustave A. Von Grunebaum مستشرق نمسوى معاصر، ولد فى فيينا سنة ١٩٠٩، وتعلم فى مدارس فيينا وفى جامعتها، ثم فى جامعة برلين. ولما قامت ألمانيا بضم النمسا إليها سنة ١٩٣٨ هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنه كان من أسرة يهودية، وإن كان هو قد اعتنق الكاثوليكية، وحصل على الجنسية الأمريكية، وصار أستاذا فى جامعة نيويورك سنة ١٩٣٨م، ثم فى جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ وفى سنة ١٩٥٧ صار رئيس قسم الدراسات الشرقية فى جامعة كاليفورنيا. واستمر فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٧٢م. له مؤلفات كثيرة عن الإسلام.

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا هو الترجمة العربية للأصل الانجليزى المنشور سنة ١٩٥٣[١] قام بها الأستاذ «عبد العزيز توفيق جاويد» وراجعها الأستاذ «عبد الحميد العبادى» ونشر فى مشروع الألف كتاب الذى سبقت الإشارة إليه، وطبعته مكتبه مصر بالقاهرة ١٩٥٦.

ويقع الكتاب – فى ترجمته العربية – فى ٤٤٢ صفحة، عدا ملحقات من جانب المؤلف تقع فى ١٨ صفحة وتعقيبات من جانب المترجم تقع فى ١٩ صفحة: وفهرس للآيات القرآنية فى ٨ صفحات، وفهرس لأسماء «الأعلام والبلدان والكتب الواردة فى متن الكتاب» فى ٢٢ صفحة وينقسم – بعد

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٤٥ وأعيد طبعه سنة ١٩٤٧، وهذه الطبعة التى يسميها المؤلف «الطبعة المنقحة» صدرت سنة ١٩٥٣.

« التمهيد » إلى عشرة فصول على النحو التالى : الفصل الأول بعنوان « الإسلام فى العالم الوسيط – نزعة الزمان » والثانى بعنوان « الإسلام فى العالم الوسيط – المسيحية والإسلام » والثالث بعنوان « الأساس الدينى – الوحى » والرابع بعنوان « الأساس الدينى – التقوى » والخامس بعنوان « الكيان السياسى – القانون والدولة » والسادس بعنوان « الكيان السياسى – النظام الاجتماعى » والسابع بعنوان « الإنسان الكامل » والثامن بعنوان « التعبير عن الذات – الأدب والتاريخ » والتاسع بعنوان « النقل الخلاق – يونان فى ألف ليلة وليلة » والعاشر بعنوان « خاتمة » .

* * *

وهذا كتاب آخر يمتدح المترجم مؤلفه ويصفه بنزاهة القصد، فى ذات الوقت الذى يحتاج إلى كتابة ستين تعقبا كاملة للرد على بعض ما جاء فى الكتاب من مغالطات تاركا الكثير غيرها بغير تعقيب!

يقول المترجم فى تقدمته للكتاب بعنوان « كلمة المترجم » .

« والمؤلف وإن سمّى كتابه « الإسلام فى العصور الوسطى » إلا أنه بدأ معه حيث نبت، فهو يتتبع الإسلام وليدا ناشئا ويترسمه قرآنا وسنة ويدرس أصوله ومذاهبه وفرقه بأسلوب علمى دقيق، فهو لا يكاد يورد فكرة إلا أورد لها نصا وأورد للنص مرجعه، وأشهد لقد كان فى كل ما نقله نزيها، ما حرّف لفظة واحدة إلا أن يفوته فهمها، وأشهد أنه لم يذم الإسلام بلسانه قط، ولا تنقص رسوله الكريم، بل الحق أنه كثيرا ما كان ينعى على أولئك الذين يخرجون عن جادة القصد والوقار فى نقدهم. وأنه وهو الأجنبى عن الملة لم يفته أن يظهر تقديره لما جاء به الطاهر الصادق من عقيدة الإسلام ... » !!!

* * *

يبين المؤلف قصده من تأليف الكتاب فى « التمهيد » فيقول :

« نشأ هذا الكتاب من سلسلة من المحاضرات العامة، ألقيت فى ربيع سنة ١٩٤٠، بقسم الدراسات الكلاسيكية بجامعة شيكاغو. وهو يهدف إلى الإحاطة

المجملة بالاتجاه الثقافى للعصور الإسلامية الوسطى، مع قصر الاهتمام على الإسلام ببلاد المشرق. ويحاول الكتاب أن يصور رأى مسلم العصور الوسطى فى نفسه وفى عالمه ذى التحديد الخاص، وأن يبين الاتجاهات الأساسية العقلية والعاطفية، التى كانت تتحكم فى أعماله، والحال النفسية التى كان يحيا فيها حياته. وهو يحاول جاهدا أن يفسر النسيج الذى ركب منه عالمه من حيث العناصر الموروثة والمنقولة والأصيلة المبتكرة، وإطار النظم التى كان يعتمل فى كنفها ويدور فى فلكها، ومكانه بالنسبة إلى العالم المسيحى المعاصر له ... ومن ثم جاز لنا أن نقول إن تعقب مزاج العصور الوسطى الإسلامية وتعرف مذاقها، هو هدف هذه الدراسة ...»

فلننظر الآن كيف سعى المؤلف «النزيه» إلى تحقيق هذا الهدف «العلمى» البرئ ...!

يبدأ المؤلف من أول صفحة فى الكتاب فيكشف عن طريقته المثلى، التى يمتدحها السيد المترجم فى إعجاب ظاهر، فيوحى فى عنوان الفصل الأول ذاته بأن الإسلام ازدهر فى العصور الوسطى لأن «نزعة الزمان» كانت نزعة دينية!

«يسجل تاريخ العصور الوسطى للأقاليم الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند نمو ثلاث وحدات سياسية وثقافية واضمحلالها وعلاقة بعضها ببعض ...

وكان الدين فى غالب الأمر العامل الأكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل ...

وكان الفرد من الناس، إبان معظم العصور الوسطى، يعد نفسه مسيحيا أو مسلما أولا، ثم نزيل ناحيته الخاصة من وطنه ورعية للمولى المحلى ثانيا، ثم إنه ليس فرنسيا أو مصريا أو جرمانيا إلا فى المقام الثالث والأخير ...».

وهكذا فإن «نزعة الزمان» هى التى مكنت للإسلام، وليس أنه دين الفطرة، ولا أنه الحق السماوى المنزل ليحكم حياة الناس فى الأرض، ولا أنه هو المنظم المضبوط لنشاط الإنسان ... ولا لأى مزية ذاتية فيه ... وإنما لأن «نزعة الزمان» كانت دينية!

ولسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يقرّ رجل غير مسلم بالحقيقة الجوهرية فى الإسلام: أنه دين الفطرة، وأنه المنهج القويم لأنه المنهج الربانى. وليس بنا كذلك أن نرد على المؤلف ونناقشه، فما توجد جدوى حقيقة فى هذا النقاش. ولكنا نهتم بهذه المقالة من زاويتين اثنتين ذواتى دلالة فيما نحن بصدده فى هذا الكتاب.

الأولى: أن المترجم – على كل حماسته للإسلام، البادية فى تعقيباته الستين – لم يلحظ أن هذه البداية للكتاب، المبتدئة بعنوان أول فصل، فيها أى مساس بالإسلام الذى يدافع عنه بحرارة ضد هجمات المهاجمين، فى تلك التعقيبات الستين!.

والثانية: أن «المثقفين» من المسلمين يتشربون هذا السم فى بساطة، ويروحون يرددون – وراء «السادة» الذين يلقنونهم – أن الدين كان سمة من سمات العصور الوسطى، ولكنه ليس ظاهرة بشرية ... وقد أخلى مكانه فى العصر الحديث للعلم...

إن هذا القول صحيح بالنسبة للتاريخ الأوربى، ولظروف محلية بحتة فى أوربا، والغرور الأوربى يوحى للناس هناك أن تاريخهم هو تاريخ العالم! أما نحن؟ فما الذى يدفعنا إلى ترديد هذه المقولة التى لا تتناسب مع حقائق التاريخ الإسلامى، بل مع حقائق التاريخ الأوربى ذاته، الذى عاد أهله يبحثون اليوم عن الدين وعن الروحانيات، لتنقذهم من الضياع الذى أظلهم وأضلهم حين ابتعدوا عن الدين؟!

إن الإسلام قد بدأ جولته حقا فيما يسمى – فى أوربا – العصور الوسطى، ولكنه بدأها من أرض لم تكن متدينة من قبل، وإنما كانت تعيش فى خرافة جاهلية. فلم تكن «نزعة الزمان» هى التى مكنت للإسلام فى الجزيرة العربية إنما كان قدر الله الغالب، المتمثل فى اختيار هذه البقعة بالذات لينطلق منها دين الفطرة ويمتد من المحيط للمحيط.

وإذا كانت «نزعة الزمان» فى أوربا فى ذلك الوقت هى التدين، بمعنى اعتناق عقيدة والحياة فى ظلها، ففرق بعد ذلك كبير بين الصورة السلبية لنزعة الزمان هذه كما كانت فى أوربا، تغشيها الجهالة، والركود، والانقطاع عن الحركة الحية الدافقة، ويغشيها – قبل ذلك – انفصال كامل بين العقيدة والشريعة، .. فرق بين هذا وبين الصورة الإسلامية الحية المتحركة الموارة بالنشاط فى كل ميادين الحياة، مع الاتصال الكامل بين العقيدة والشريعة، وبين الدين والدولة، وقيام الحياة كلها منطلقة من المنهج الربانى للحياة.

فإذا كانت الصورة الإسلامية هى «نزعة الزمان» فلماذا لم تكن كذلك فى أوربا؟

وإذا كانت الصورة الأوربية هى التى تمثل «نزعة الزمان» فالإسلام إذن شئ آخر لا علاقة له بتلك النزعة الزمنية التى أراد المؤلف – من أول كلمة – أن يربط بها الإسلام!

هذه واحدة ...

والثانية أن أوربا قد خرجت من دينها – أو بدأت تخرج – فى نهاية العصور الوسطى، لأسباب – كما قلنا – محلية هناك. أما الإسلام فقد ظل أهله متمسكين به إلى القرن التاسع عشر على الأقل حتى غزتهم أوربا بمفاهيمها فأصابهم من غزوها ما أصابهم فتخلوا عن الإسلام. بل كانت للإسلام جولة منتصرة فى أوربا ذاتها حتى القرن السادس عشر بعد أن انتهت «نزعة الزمان» فى أوربا بأربعة قرون على الأقل! فلم يكن للإسلام إذن – فى العالم الإسلامى – علاقة بنزعة الزمان، إنما كانت علاقته بأهله هى علاقة الاستمرار والدوام، لأنه «النزعة الدائمة» لهذا الفريق من البشر على أقل تقدير!

والثالثة أنه بعد أن غزت أوربا العالم الإسلامى وأفسدت فيه ما أفسدت، عاد المسلمون يبحثون عن إسلامهم الذى تخلوا عنه فى بهرة الضعف والهزيمة،

فقامت حركات البعث الإسلامى فى كل مكان فى العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، وما تزال ماضية فى الطريق رغم كل العقبات التى يبثها أعداء الإسلام فى الطريق.

فأى ربط بين الإسلام وبين «نزعة الزمان» أو بينه وبين القرون الوسطى هو ربط باطل من أساسه. ولكن للمستشرقين غرضا لا يخفى فى الإيحاء بأن الإسلام ازدهر ذات يوم لتناسبه مع حالة الناس فى «العصور الوسطى» وأنه لا مكان له اليوم فى الحياة، وذلك لكى يخرج المسلمون نهائيا من إسلامهم، فيستريح «أصحاب الشأن» من الإزعاج الذى يسببه لهم هذا الدين!

* * *

فى صفحة (١٣) يقول: «وأعظم مسائل ذلك الزمان شأنا مسالة العلاقة بين السلطتين الزمنية والروحية. وكانت هذه العلاقة أيسر ما تكون فى الإسلام».

وإلى هنا قد يظن القارئ أن المؤلف يعترف بفضيلة الإسلام فى هذا الشأن. فالإسلام لا تقوم فيه أصلا تلك المشكلة التى قامت فى أوربا المسيحية بسبب تفتيتها الدين إلى عقيدة وشريعة ثم إعمال العقيدة وحدها وإهمال الشريعة المنزلة إليهم فى التوراة والإنجيل، وإحلال القانون الرومانى محلها، مما جعل «الدين» و«الدولة» معسكرين متعاديين يقوم بينهما الصراع والنزاع حتى ينتهى أخيرا بغلبة الدولة على الدين ...

قد يظن القارئ ذلك حين يقرأ عبارة المؤلف «وكانت هذه العلاقة أيسر ما تكون فى الإسلام» ولكن المؤلف لا يدعه عند هذا الظن الخاطئ، بل يبين له! «فإن الإسلام لم تنظم فيه السلطة الروحية البتة بصورة رسمية، على حين ظلت السلطة الزمنية قانعة بدور «حامى حمى العقيدة» دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية ولا حتى مجرد تأويلها»!!

أرأيت كم كنت مخدوعا فى ظنك أنه يقرّ بفضيلة الإسلام؟!

كلا! إن العلاقة كانت أيسر ما تكون فى الإسلام لا لفضيلة فيه! ولكن لعدم التنظيم الرسمى من جهة، وعدم إدخال أى تطور فى التعاليم الدينية من جهة أخرى .. أى لنقيصتين مجتمعتين! بينما يصور ذلك الصراع فى أوربا، ومحاولة الوصول إلى حل له على أنه علامة من علامات الإيجابية السوية التى تستحق الإشادة وتستحق التعظيم!

ومرة أخرى قد يظن القارئ أن هذه العبارة: «على حين ظلت السلطة الزمنية قانعة بدور «حامى حمى العقيدة» دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية ولا حتى مجرد تأويلها» هى – على الأقل – تسجيل من المؤلف للحقيقة الإسلامية وليس مقصودا بها التجريح ... ولكن المؤلف لا يدعك أبداً عند هذا الظن الخاطئ! فهو لا يفتأ يردد فى الكتاب أن مصيبة الإسلام العظمى هى عدم الخروج على هذه التعاليم الربانية!!

ففى صفحة (١٨٥) – مثلا – يقول: «أخفق القانون السماوى لأنه أهمل عامل التغير الذى أخضع له الله مخلوقاته»!

وفى صفحة (١٩٤) يبدى أمله فى أن «الإجماع» الذى يضرب صفحا عن النصوص القرآنية والسنة القديمة (!!) يمكن أن يزيل تلك العقبة التى تقف فى سبيل تطوير الإسلام! يقول: ولعله لم يغب عن البال أن الإجماع قد استلزم فى الأزمنة السالفة الاعتقاد فى الأولياء والقول بعصمة النبى، ضاربا صفحا فى الحالين عن النصوص القرآنية والسنة القديمة، وبذلك يستطيع الإجماع مثلا بتبنّيه مذهب الاجتهاد، أن يزيل إحدى العوائق الرئيسية التى تحول دون إقامة صرح الإسلام على أسس عصرية»!!

وفى صفحة (١٩٥) يبدى ذات الأمل بالنسبة للاجتهاد فيقول: «غير أن من المحتمل أن انقلابا فى الشعور العام قد يعيد فتح «باب الاجتهاد» وبذلك يمهد السبيل لإعادة النظر فى الشريعة من كافة نواحيها»!!

ولذات السبب الذى ذكرناه فى الفقرة السابقة نناقش هذه العبارات ... لا

نرد على المؤلف، فليست هنا مادة «علمية» تناقش! إنما هي أمنية أهل الكتاب الدائمة في أن يتخلى المسلمون عن الإسلام! ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٦٩] ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩] وإنما من أجل «المثقفين» الذين يبتلعون هذا السم ذاته فيرددون ذات الأقوال.

إن الذى حفظ للمسلمين إسلامهم طوال تلك القرون هو محافظتهم على شريعتهم التى يسميها جرونيباوم «مجموعة التعاليم الدينية» وهذه الشريعة التى يزعم جرونيباوم وغيره من المستشرقين – ويتابعهم فى ذلك «المثقفون» – أنها هى سبب جمود المسلمين وتأخرهم، هذه الشريعة نزلت لتبقى مع الندس إلى يوم القيامة، ونزلت لتتسع لنشاط البشرية المؤمنة المهتدية إلى يوم القيامة. ولذلك فقد صيغت صياغة ربانية بحيث تشمل هذا النشاط وتنظمه، فواجهت الثابت والمتغير فى حياة البشرية بما يلائم هذا وذاك.

فالثابت أعطت فيه تفاصيل كاملة ثابتة غير قابلة للتغير. وأما المتغير فأعطت فيه أصولا ثابتة، وتركت للعقل المؤمن أن يجتهد لوضع التفصيلات المناسبة لكل عصر، بحيث لا تصطدم مع الأصول الثابتة. وفضلا عن ذلك فهناك أمور «متروكة» للعقل البشرى يضع أصولها وتفصيلاتها بحيث لا تصطدم فى النهاية مع القواعد العامة للإسلام (١) فليس صحيحا أولا ما يزعمه المؤلف هنا من أن القانون السماوى أهمل عامل التغير الذى أخضع له الله مخلوقاته. وليس صحيحا ثانيا ما يزعمه فى صفحتى (١٨٥، ١٩٧) من أن نجاح المسلمين فى مواجهة الحياة المتجددة فى ظل العقيدة كان بإدخال عناصر دخيلة على الشريعة! فإن عنصر التجديد ليس دخيلا على هذه الشريعة، إنما هو من صلبها. وهو أداتها – الربانية – لتتسع لنشاط البشرية المؤمنة المهتدية إلى يوم القيامة.

يقول فى صفحة (١٨٥): «أخفق القانون السماوى لأنه أهمل عامل التغير

---

(١) انظر بالتفصيل إن شئت كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية».

لدى أخضع له الله مخلوقاته. وعندما كانت النظرية القانونية تضطر إلى أن تحسب لهذا العنصر حسابه، فإنها كانت تنجح فى الوصول إلى تسوية عملية قابلة للتنفيذ. ولكن ذلك كان يتم بتخليها - عن غير تنبه منها - عن ذلك الحلم العظيم الذى يتخيل هيئة اجتماعية تعمل على الدوام وفق قانون ثابت أوحاه الله عند اكتمال الزمان».

ويقول فى صفحة (١٩٧): «وراح المسلم يجابه تقلبات الزمن محتميا وراء شريعته مجابهة كللت بالنجاح. ولكن من دواعى الأسف أن الشئ الكثير من نجاحه الدنيوى ومن رسوخ قدمه فى هذا العالم إنما يرجع إلى استعداده للتوفيق والتراضى بإدخال الحقائق المتغيرة لهذه الحياة فى حقيقة الوحى الثابتة»!!

هذا من دواعى الأسف عند جرونيباوم!

فهو حريص - كما ترى - على أن تكون حياة المسلمين مثالية!! ولذلك يأسف على هذا «التحايل» الذى ظل المسلمون يرتكبونه خلال العصور، بإدخال العنصر المتغير فى «حقيقة الوحى الثابتة»!

وهكذا يحول الفضيلة الإسلامية إلى نقيصة بذات الطريقة «العلمية النزيهة» التى استخدمها فى الفقرة السابقة!

وما بنا - كما أسلفنا - أن نناقش «العالم الكبير» فى هذه المغالطات. ولكنا نقول «للمسلمين» الذين يرددون بوعى أو بغير وعى أقوال ذلك «العالم» وأمثاله، إن أولئك «العلماء» وهم ينكرون أن هذا الدين موحى به من عند الله، ويزعمون أنه من صنع محمد ﷺ، فهم منطقيون مع أنفسهم فى ضلالتهم إذ يتقولون على شريعة الله ما يتقولون.

أما «المسلمون» الذين يؤمنون بأن هذا الدين من عند الله، فما منطقهم إذ يرددون هذه الأقوال على علم بمصادرها أو بغير علم؟! إنهم لا يستقيمون مع أنفسهم إلا على أساس واحد - نستعيذ بالله منه - أن يكون الله سبحانه وتعالى وهو ينزل هذا الدين وهذه الشريعة ويفرضها على الناس، لم يكن عالما بأن أمور

الحياة البشرية ستتغير، وستحتاج إلى شرع جديد!! فالزمهم بهذه الشريعة على غير علم، وأوقعهم فى حرج لا مخرج لهم منه إلا بالخروج من هذا الدين! فهل كذلك يظن أولئك «المسلمون»؟!

ثم نقول لهم بعد ذلك إن المسلمين لم يفقدوا وجودهم وعزتهم وكرامتهم بقدر ما فقدوها حين استجابوا لهذا الكيد الخبيث من أعداء الإسلام، فتخلوا عن إسلامهم، فصاروا إلى ما هم فيه اليوم من هوان فى كل الأرض ... حتى يعودوا إلى الإسلام، ويغيروا ما بانفسهم فيغير الله ما بهم: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١]

* * *

فى صفحة (١٤) يقول: «وإذا قيست دولة الإسلام إلى القسطنطينية وروما ظهرت فى زى الدعىّ المحدث. ذلك أنه لم يكن للإسلام ماض تليد، ولم تكن له تقاليد تاريخية، ولذا قد نجرؤ على أن نقول: إن الإسلام استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة ...»

ونصرف النظر عن هذا التعبير غير اللائق وغير المهذب الذى يستخدمه المؤلف فى نعت دولة الإسلام حين يقول إنها ظهرت فى زى الدعىّ المحدث. ومئات من العبارات اللائقة كان يمكن أن تعبر عن المعنى المقصود؛ لو لم تكن وراءها شهوة التجريح وانتهاز كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة للقيام بذلك التجريح.

نصرف النظر عن هذا، ونلتفت إلى القضية التى يثيرها فى بقية عبارته، والتى يثيرها مثله – وعلى طريقته – مئات من أولئك المستشرقين، لا يملون من ترديدها وهى أن الإسلام عاش عالة على غيره من النظم والعقائد، وبالذات: الفارسية والبيزنطية، واليهودية والمسيحية.

ونلاحظ بادئ ذى بدء ذلك الخلط المتعمد بين لفظى الإسلام والمسلمين، والذى يزعمون أنه من «طبيعة اللغة»!!

فحين يقول عن « دولة الإسلام » إنها لم يكن لها – يومئذ – ماض تليد ولا تقاليد تاريخية، فهذا حق ولا شك. ولكن حين يستخدم لفظة « الإسلام » بدلا من « دولة الإسلام » أو بدلا من « المسلمين » فهو يعطى إيحاء خبيثا مقصودا لذاته، يهدف إلى تمييع صورة الإسلام المتميزة، وربطها بواقع المسلمين. ثم حين يقول إن « الإسلام » استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة، فهو بلا شك يقصد الأمرين معا، يقصد الإسلام المنزل، ويقصد واقع المسلمين والدولة الإسلامية. فينسب إلى الإسلام المنزل أنه استعار مفاهيمه من الكتب المقدسة، اليهودية والمسيحية، وإلى المسلمين أنهم أخذوا نظام دولتهم من الرومان والفرس.

هذا الخلط المتعمد يهدف – كما أشرنا منذ سطور – إلى تمييع صورة الإسلام المنزل من عند الله، وإدخال كل ما يحدثه البشر المسلمون من الأعمال، الصالحة أو المنحرفة، فى داخل هذا « الإسلام » فلا يتبين فى النهاية ما هو منزل وما هو مصنوع، ويمكن – عن هذا الطريق – للعصرانيين، الذين يحملون أسماء إسلامية وقلوبا لا تعرف الإسلام، أن يدخلوا فى الإسلام ما شاءوا – أو شاء لهم سادتهم – من أفكار ومفاهيم .. وكله فى النهاية إسلام !!

إن الإسلام – بين كل النظم التى عرفتها البشرية – يتميز بأن له أصولا سماوية واضحة محددة، ومحفوظة غير محرفة، هى كتاب الله وسنة رسوله. وهذان هما المرجع الدائم الذى يرجع إليه لتحديد ما إذا كان سلوك البشر إسلاميا أو غير إسلامى. وقد سار المسلمون خطوات عديدة مديدة على درب التاريخ، فكان بعضها مستقيما على الطريق، وبعضها منحرفا درجات مختلفة من الانحراف. فتظل خطواتهم تقاس بهذا المقياس الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل فى أصوله العامة مهما جدّ فيه من أحكام تفصيلية منضبطة بالأصول العامة؛ فيقال إن هذه خطوات مستقيمة وتلك خطوات منحرفة، ويظل الإسلام هو الإسلام، غير محكوم بخطوات البشر على الأرض، وإنما محكوم بأصوله الربانية الثابتة المحفوظة : كتاب الله وسنة رسوله.

وليس معنى هذا من جهة أخرى أن الإسلام نظام مثالى غير قابل للتطبيق مثل أحلام الفلاسفة « الطوباوية »(١) فما دام قد طبق بكامله فى واقع البشر مرة، فقد تحقق له الوجود الواقعى الذى يميزه عن أحلام الحالمين، ويظل واجبا على المسلمين أن يحاولوا تطبيقه، فيصلوا منه إلى ما يستطيعون، ويكون مقياسهم الإسلامى هو مقدار ما يصلون إليه فى التطبيق.

هذا من ناحية ذلك الخلط المتعمد بين « الإسلام » و« المسلمين ». أما زعم المؤلف أن الإسلام – أى المنزل من عند الله – قد استمد من الأصول اليهودية والمسيحية، وهى فكرة لا يفتأ يرددها فى صفحات الكتاب، ويرددها أكثر المستشرقين إن لم يكن كلهم، فيكفى فيها قوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾ [المائدة: ٤٨]

ثم ليقل بعد ذلك من شاء أن يقول ما شاء أن يقول! فالمسلمون على أى حال، حتى الذين خرجوا من إسلامهم نهائيا واتبعوا الغرب أو الشرق، لم يلتفتوا يوما لهذا الزعم المزعوم!

* * *

فى صفحة (٩٥) يورد سخافة الغرانيق الشهيرة، التى يزعمون أن الرسول ﷺ أشاد بها فى سورة النجم فتلا: ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٠] ثم قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى! وتلا بعد ذلك ﴿ **إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم: ٢٣].

وفى صفحة (٩٩) يتكلم عن مسيلمة الكذاب، وعن سجاح، على أنهما أنبياء على نفس مستوى نبوة محمد ﷺ. وأن العصر كان عصر تنبؤ!! يقول: « وقد ظهر أوائل الأنبياء العرب فى القرن السابع الميلادى. ففى نفس الوقت الذى

---

(١) نسبة إلى « اليوتوبيا » أى المدينة الفاضلة التى كان يحلم بها أفلاطون وغيره من الفلاسفة.

ظهر فيه محمد أو قبله (!!) بقليل جمع المتنبئ مسيلمة جمعا عظيما في اليمامة (١). وكان يأمر بالصيام، وينهى عن الخمر، ويقيد الحرية الجنسية وتكلم عن يوم الحساب، وعن الله الواحد وعلمه المحيط بكل شئ وإن أسلوب الأقوال القليلة التي نقلت إلينا عنه ليذكرنا تذكيرا قويا بأسلوب القرآن، وإن بدا أدنى منه مرتبة إلى حد ما. وربما كان مصدر التشابه انتسابهما إلى أرومة مشتركة هي طريقة العراف (!!) ولكنه ربما عاد أيضا إلى اختراع خبيث من جانب بعض المسلمين، أو حتى تقليد مسيلمة نفسه لمنافسه الذي حظي دونه بالتوفيق. وأصابت إحدى المتنبئات وهي سجاح شيئا من النجاح بعد موت محمد. وهنالك من الدلائل ما يدل على أنه كانت ثمت قلوب أخرى متوقدة تشعر بأنها تلقت الدعوة بالانطلاق للوعظ والهداية »!!

وفي صفحة (١٠٨) يقول: « وكانت أموره الشخصية (أي أمور الرسول ﷺ) تسبب للمؤمنين بعض لحظات القلق؛ ولكن الله كان يظاهر رسوله ويسكت كل ناقد (!) على أن الصعوبات التي واجهت المجتمع لم تكن راجعة إلى عيوب في النبي، بل إلى أن معين التعاليم المفروضة، الإلهي منها والعملي، انقطع بغتة عندما توفي محمد على غير انتظار تقريبا، ودون أن يمد المسلمين بأية أداة لمواصلة المضي بالعقيدة في سبيل تطور شامل جامع » (!!)

ولسنا نثبت هذه الأقوال لنرد عليها، فما أظن أن قارئا مسلما واحدا يمكن أن يأخذ هذا الهذر مأخذ الجد ... وإنما نثبته لنعجب من قول المترجم في مقدمته « وأشهد أنه لم يذم الإسلام بلسانه قط، ولا تنقص رسوله الكريم »!!

* * *

من صفحة (١٠٨) إلى صفحة (١١٨) حديث عن القرآن يبدؤه بعبارة غاية في « الإنصاف » و« النزاهة » و« حسن القصد »!

---

(١) يعرف كل الناس ولا شك ومن بينهم جرونيباوم أن مسيلمة ادعى النبوة بعد بعثة الرسول ﷺ ولكنه الالتواء « العلمي » أنزيه!

يقول: «لقى أسلوب القرآن من الغربيين نقدا إجماعيا شديدا وشاركهم فى ذلك بعض المسلمين (!!) وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره (!!) على أن غلو الغرب عامة فى هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية، وإسناد التكرار وغيره إليه، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن فى شئ (!!).

أتريد نزاهة أبلغ أو أسمى من هذه النزاهة؟!

ثم يقول: «فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمد (!!) بل الواقع أن كتابا بأكمله لم يوح إليه قط (!!) بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة (!!) ووصايا وأمثال وقصص ذات مغزى أو أحاديث فى أصول العقيدة. ولعله كان ينوى أن يجمع شتيت أجزائه المتعددة، وأن يجمدها إن جاز مثل هذا القول – حتى تتخذ صورة القوانين الدينية – وإن لم يكن فى الإمكان إثبات ذلك (!!) وطبيعى أن خلفاءه لم يجرأوا على القيام بمحاولة ما قد كان النبى يقوم بها لومد فى أجله: وهو أن ينظم ويختصر ويهذب النصوص الفردية الكثيرة ويجمعها فى كُلٍّ متماسك»!!

ثم يروح فى الصفحات التالية يردد ما يردده المستشرقون الآخرون عن القرآن من تناقض، واختلاف أسلوبه ما بين مكة والمدينة وأنه مأخوذ عن اليهود والنصارى، وأنه يتجاوب مع حالات الرسول ﷺ النفسية المتناقضة المتقلبة، نختار من بينها هذه الفقرة لطرافتها، وإن لم تكن خاصة بجرونيباوم، فقد التقينا بها من قبل مع فلهوزن:

«ولم يكن للنبى عهد قط بطرائق الفلسفة فى التفكير (!!) وهناك مسائل قدر لها أن تسبب للناس متاعب كثيرة بعد مضى خمسين أو مئة سنة على وفاته. ذلك أنه عندما كان النبى يقوم بتقرير أمر من أمور العقيدة، فإن ما كان يفعله فى الواقع كان تسويغا عقليا لحالة نفسية. ولما كانت الأحوال النفسية متعارضة، فإن الصعوبات المنطقية الناجمة عن التعبير عنها بالألفاظ لم تظهر للعيان على الفور»!!

من صفحة (٢٢٧) إلى صفحة (٢٣٨) يتحدث عن موقف الإسلام من أهل الكتاب الواقعين فى ذمة المسلمين، فيتأرجح أرجحة «علمية» ولا شك بين النفى والإثبات والذم والمديح على هذه الصورة:

« ... وهنا تقوم شهرة الإسلام بوصفه دين تسامح. ولا شك أن لهذه الشهرة ما يبررها، وذلك نظرا لأن كلا من اليهود والمسيحيين يسمح لهم بأن يظلوا على دينهم. ولكن ليس لها ما يسوغها مطلقا، من حيث أن التسامح عند الغرب ينطوى على التساوى أمام القانون، وعلى المشاركة فى الحياة المدنية والسياسية على قدم المساواة» (ص ٢٢٩).

« ولسنا نرمى من وراء ذلك بطبيعة الحال إلى نكران أن ما نزل بأبناء الأديان الأخرى فى بلاد الشرق إبان العصور الوسطى من اضطهاد وتعذيب كان أقل مما حدث فى الغرب، حيث كانت تعيش أقليات دينية ضخمة، ولكنها - باستثناء اليهود - كمّ مهمل عديم الشأن» (ص ٢٣١).

« وغنى عن البيان أن سماح الدولة الإسلامية بأن تقوم فى صميم كيانها هيئات شبه مستقلة مكونة من أقوام يحتمل عداؤهم، يعد على التحقيق نقطة ضعفٍ خطرة عليها وقد حدث هذا بينما لم تسمح الإمبراطورية البيزنطية بقيام أية منظمة إسلامية فى بلادها» (ص ٢٣٢).

وبعد ذلك فإنه يشكو!!!

* * *

فى صفحة (٢٥٤) يقول: «لم يكن الإسلام حركة اجتماعية بمعنى أنه كان يجعل إصلاح النظام القائم هدفا له»!!

ولعلى لم أقرأ فى كل ما قرأته من كتب المستشرقين أعجب من هذه العبارة فى هذا الباب! فكلهم - والحق يقال - قالوا إن الإسلام أحدث تغييرات جذرية فى المجتمع الذى جاء فيه، وإن كانوا بعد ذلك يحاولون التغطية على هذه الحقيقة بوسائل شتى، فإما أن يقولوا إن التغيير كان مناسبا لوقته ولم يعد اليوم كافيا بعد

« تطور » الحياة البشرية أو يقولوا إن التعبير لم يشمل جوانب اجتماعية معينة بالقدر الكافي ... إلخ.

أما أن يقولوا إن الإسلام أصلا لم يكن حركة اجتماعية بمعنى أنه لم يجعل إصلاح النظام القائم هدفا له، فهذا أمر لا أذكر أني قرأته لواحد منهم، ولا حتى لشيوعيون منهم، الذين يركزون كل تركيزهم على الجانب الاجتماعي! (١).

حقيقة إن الإسلام لم يجئ ابتداءً لينحصر في حركة إصلاح اجتماعي، ولا إصلاح سياسي، ولا إصلاح أخلاقي ... ولا غيرها من أنواع الإصلاح الجزئية المحصورة. إنما جاء ليكون حركة إصلاح شاملة « للإنسان » ذاته، لكي يكون إنسانا صالحا في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فبدأ بإصلاح عقيدته لأن الله يعلم أن هذه نقطة الابتداء التي يبدأ منها كل إصلاح لحال الإنسان. فإذا استقامت عقيدته، فعرف الله الواحد حق معرفته، وعرف من ثم أنه لا ينبغي له أن يتخذ شرعا غير شرع الله، ولا منهجا للحياة غير المنهج الرباني، راح يبين له تفصيلات هذا المنهج. الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والفكرية والروحية ... كلها سواء.

إنما يدعي جرونيباوم دعواه على أساس أنه : « بينما كان الإسلام من ناحية يذكي روح المساواة القصوى، إذا هو من الناحية الأخرى يقوي ميول العرب الأرستقراطية التقليدية بتقديمه أساسا جديدا للتمييز الاجتماعي لا عيب فيه لدى المسلمين، وهو قرب النسب من النبي والسبق إلى الإسلام ... ».

وأما أن السبق إلى الإسلام كان مميزا اجتماعيا في العهد الأول للإسلام فهذا حق. وهو كذلك أمر طبيعي لا غرابة فيه، وهو التطبيق العملي للآية الكريمة: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وإن المجتمع الذي يكرم المكرمين عند الله لهو المجتمع الحق، المستقيم على الطريق الذي ينبغي أن يكون المثل الذي تحتذيه كل

---

(١) لست أقطع بطبيعة الحال بأن آخرين غير جرونيباوم لم يقولوا مثل قوله ... ولست أعم أنني قرأت كل ما يكتبون!

البشرية، بدلا من أن تكرم السفاحين سفاكى الدماء بوصفهم زعماء! أو تكرم مصاصى الدماء ومصاصى عرق الكادحين بوصفهم طبقة أرستقراطية!

وأما أن الإسلام جعل قرب النسب من النبى مميزا اجتماعيا فدعوى تحتاج على الأقل إلى دليل! والدليل الذى بين أيدينا يدل على عكس ذلك. فالرسول ﷺ يقول: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ويقول: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغنى عنك من الله شيئا ...» فأما أن المجتمع الإسلامى ميز هؤلاء، فأمر لا يسأل عنه الإسلام أولا، ولم يكن مخالفا لشرط الإسلام ثانيا وهو: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ فقد كانوا يستحقون التكريم بمؤهلاتهم الذاتية لا بمجرد كونهم قريبى النسب من الرسول ﷺ.

على أن القضية فى حقيقتها أبعد من هذا الشأن وذاك.

إن كلمة «الطبقة» الاجتماعية لها فى نفوس الغرب معنى معين، ملازم لواقع الحياة الأوربية، مفاده أن الطبقة التى تملك هى التى تحكم. أى أن لها فى الحقيقة حق السيطرة على الجماهير عن طريق حق التشريع، لأنها تصنع من التشريعات ما يضمن مصالحها، وغالبا ما يكون ذلك على حساب القطيع البشري الذى تسيطر عليه. وهذا المعنى هو الذى لم يوجد فى الإسلام قط طالما كانت شريعة الله هى التى تحكم، و«السلطة الزمنية» كما يسميها جرونيباوم بالمصطلح الغربى «قانعة بدور حامى حمى العقيدة دون ادعاء الحق فى إدخال أى تطور على مجموعة التعاليم الدينية» كما قال بحق فى صفحة (١٣) من الكتاب.

وهنا تبدو فضيلة الإسلام التى يعرفها أو لا يعرفها جرونيباوم، والتى تمنع استعباد طبقة من المجتمع لبقية الطبقات. وتظل الفوارق الاجتماعية فى داخل المجتمع الإسلامى، سواء كانت مستقيمة على شرط الإسلام أو منحرفة عنه فى التطبيق، بعيدة كل البعد عن مفهوم «الطبقة» فى المجتمع الغربى أو غير الإسلامى على وجه العموم.

ولكنها إحدى مغالطات السادة «العلماء» يفتنون بها المسلمين الذين لا يعرفون حقائق الإسلام.

من الدعاوى التى شغل بها جرونيباوم حيزا غير قليل من كتابه هذه الدعوى الغريبة، التى يختلط فيها الحق بالباطل :

يقول فى صفحة (٢٨٣) : « والإسلام منذ بدايته لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير. وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدى، فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلا ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ [المؤمنون : ١٢ – ١٤] فليس للإنسان أى فخر فى بداياته هذه. فهو ليس مكونا من مادة مهينة فحسب، بل هو ضعيف عديم الحس ساعة ينحدر إلى هذه الحياة، ولا يحفظه فى وجوده المحفوف بالخطر إلا إرادة الله . . . »

و يقول فى صفحة (٢٨٢) « فالفرد تهمل شخصيته. وهذا الإهمال للشخصية يكون على وجهين. فهو من ناحية يحمل المشاهد على أن يرد الناس الذين يشهدهم ويدرسهم إلى طرز وأنماط، ويقلل اهتمامه بالخصائص المميزة للفرد، ويتشدد فى وجوب مطابقته للنموذج المقرر. وهو من الناحية الأخرى، يحمل الفرد على جعل غرضه الأسمى من الحياة الوجد الصوفى، وذلك بالاتحاد التام بالجوهر الإلهى عندما يتلاشى شعوره بشخصيته المستقلة . . . » .

ويقول فى صفحة (٢٨٤) : « وليس المعلم الصوفى ولا النبى ولا الملك ولا الشاعر – ولا حتى المتسول – قوما ذوى شأن لما هم عليه بوصفهم أفرادا، بل لما ينطوون عليه من معنى فى منظمة الوجود الكبرى. وهم يعرفون بعلامات معينة. وإذا درست حيواتهم وجب أن تعرف هويتهم بوصفهم صورا صيغت على قوالب معروفة حق المعرفة. وتعود أهميتهم إلى كونهم ممثلين لطراز ما، وما ذلك الطراز إلا التجسد المادى لإحدى الوظائف. فالمواهب الخاصة التى عليها هذا الولى أو ذاك، أو هذا الحاكم أو ذاك، ليست ذات بال إلا من حيث إنها تحدد مرتبته بين الممثلين العديدين للطراز نفسه » .

ويقول فى صفحة (٢٩٣): «والإسلام دين إنسانى ممتاز من ناحية أخذه الإنسان على علاته، ولكنه لا يجعل الإنسان محل اعتباره الأول من حيث كونه لا يهتم بأجزل ما يمكنه كشفه وتعهده من إمكانيات الإنسان، وفى كونه لم يفكر أبدا فى أن يجعل تكوين الناس أهم مبدأ من مبادئ الحضارة وأنبل واجباتها. فالإنسان (١) أحوج إلى أن يوجه ويرشد إلى طريق النجاة منه إلى أن يعلم كيف يجعل تعهده لذاته فى أثناء تعهده لهذا العالم، أجدر الأعمال بالجزاء السرمدى ...».

ولطرافة هذه القضية نتناولها بشئ من البيان بقدر ما تسمح به طبيعة هذا الكتاب.

إن تذكير الإنسان بأصله المهين لم يكن لتحقير الإنسان كما ظن جرونيباوم، ولنفترض – من باب حسن الظن – أنه أخطأ الفهم فحسب، ولم يتعمد المغالطة! وإلا فالقرآن هو الذى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠] إنما يذكّر الإنسان بأصله المهين حين يطغى ويتجبر فى الأرض بغير الحق: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يس: ٧٧] ويذكر بفضل الله عليه لكى لا ينسى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨]

فليست المسألة هى رغبة التحقير كما ظن العالم الكبير!

ثم إن وجود «المعيار» الذى يقاس إليه الإنسان حاضرا فى أذهان المسلمين، سواء كانوا مؤرخين أو كتّاب سير أو حتى أدباء وشعراء لا يستتبع حتما إلغاء شخصية الإنسان الفرد. فلا تناقض بين هذه وتلك. والإسلام هو الذى ينبه كل إنسان فرد إلى ذاتيته الفردية ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿ **كُلُّ**

---

(١) يقصد فى التصور الإسلامى.

نفس بما كسبت رهينةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] إنما هو التوازن الذى ينظر إلى الإنسان فردا وعضوا فى مجتمع فى ذات الوقت، وفردا دنيويا وأخرويا فى ذات الوقت، فينتج من ذلك العناية به فردا وتذكيره الدائم بالمعيار الذى يقوّم به حياته وعماله وهو المعيار الربانى، الذى هو فى ذات الوقت معيار أخلاقى شامل لكل نشاط الإنسان.

ولا يجنح الإسلام إلى أىّ من انحرافات الجاهلية المتطرفة من هنا والمتطرفة من هناك. فلا يبالغ – مثل الغرب – فى تقدير الإنسان الفرد إلى الحد الذى يلغى فيه روابط المجتمع ومعايير التقويم الأخلاقية، ولا يبالغ – مثل الشرق الشيوعى – فى تقدير قيمة المجتمع بحيث يلغى كيان الإنسان الفرد، ويلغى كذلك معايير التقويم الأخلاقية ... إنما يتوازن – شأنه دائما – بين هذا وذاك. على أنه كان يكفينا للرد على هذه الدعوى العجيبة أن نستشهد بكلام المؤلف نفسه بعد ذلك بصفحات، حيث أقر أن الاهتمام «بالمعيار» لم يستتبع بالضرورة إلغاء الاهتمام «بالإنسان» الفرد، وذلك حيث يقول فى صفحة (٣٦٠): «وقد شهد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهو أعظم قرون المدنية الإسلامية، تقدما مدهشا فى لطف التأويل، والمهارة فى العرض والتقديم. فإن المسعودى وابن مسكويه – ثم المحسن التنوخى (المتوفى ٦٤٤ وذلك فى مضمار النادرة التاريخية) – يتفوقون على من سبقوهم تفوقا بعيدا. إن لم يكن فى فهم الخلق الإنسانى، ففى وصفه وكشفه للعيان على كل حال. فهم قوم يدركون أن كل فرد مركب وفذ فى ناحيته، وهم يبذلون جهدا كبيرا فى ترسمهم لمعالم الشخصية البارزة!!

* * *

يظل المؤلف يردد فكرة معينة فى حيز آخر من الكتاب غير قليل هى أن كل شئ فى الإسلام تأثر بالروح الإغريقية أو تأثر بالروح المسيحية! أو بمعنى آخر أن الإسلام كله مأخوذ من أصول غير إسلامية!

حتى ألف ليلة وليلة لم تنج من نسبتها إلى أصول إغريقية!! فقد أنشأ فصلا كاملا عنوانه « يونان فى ألف ليلة وليلة » استغرق من صفحة (٣٧٣) إلى صفحة (٤٠٥)!!

وقصة الأصول غير الإسلامية للإسلام كلام يلوكه كل المستشرقين بلا استثناء ... ولكن جرونيباوم – والحق يقال – قد بذّهم جميعا، أو بذّ كثيرا منهم، حين تطرق إلى ألف ليلة وليلة، ليثبت أن فيها تأثرات إغريقية! وعلى أى شئ بنى هذه القضية الخطيرة؟ على استدلال خطير جدا، لا يتوصل إليه فى الحقيقة إلا فطاحل الباحثين المدققين! ذلك أن قصص ألف ليلة وليلة تتعرض لأشخاص « يقتلهم الحب » ... وفكرة « القتل من الحب » هى – إذا لم تكن تعلم – فكرة وردت قبل ذلك فى قصص الإغريق!!

على أن القمة التى لا تعلوها قمة فى هذا الشأن هى قوله فى صفحة (٣٥١): « ... وفى نفس هذا الاتجاه كانت تذهب تراجم القديسين المسيحيين، الذين تلمس أثرهم فى إطلاق المسلمين اسم « المغازى » أى « القتال » على أقدم تراجم النبى (ﷺ) تمشيا مع العرف المسيحى الذى يتمثل الشخصية المقدسة فى صورة المقاتل، ويتمثل أعماله فى صورة القتال »!!

أرأيت ...!

العرب المسلمون سموا غزوات الرسول ﷺ « المغازى » تأثرا بسير القديسين المسيحيين!!

وماذا تراهم يا ترى – بغير هذا التأثير – كانوا سيسمون غزوات الرسول؟!!

وهذا هو « البحث العلمى » الذى يفتح بعض « المسلمين » أفواههم عجبا له وإعجابا به ... وهم سادرون!

* * *

قضية أخيرة يختم بها الكاتب مؤلّفه. ونختم بها حديثنا عنه، هى استمرار فى الحقيقة لقضية الأصول غير الإسلامية للإسلام، وذلك حيث يلخص فى آخر

الكتاب دور المسلمين فى الحضارة البشرية وأثرهم بصفة خاصة فى الحضارة الغربية.

ولعلنا لا نتوقع بعد تلك «العينات» التى عرضناها من طريقة معالجته لموضوعه، أن تكون الخلاصة الأخيرة خيرا من الأبحاث التفصيلية فى ثنايا الكتاب ... ولكنا مع ذلك نستعرضها لأنها لا تخلو من طرافة!

يقر الكاتب بأنه شديد العجب من الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية!

وأشد ما يثير عجبه – فى هذه الخلاصة الأخيرة – هو القدرة العجيبة على أخذ أصول أجنبية، وهضمها وتمثيلها، ثم إبرازها فى صورة تبدو كأنها إسلامية أصيلة، وليست مأخوذة من تلك الأصول الأجنبية!!

يقول فى صفحة (٤٠٦): «إن من ينظر عَرَضًا إلى الحضارة الإسلامية ليؤخذ بما هى عليه من وحدة عجيبة واتساق أخاذ – فإن أشياء بآحادها بل مدنا بأكملها تبدو وكأنما هى تنطق بنفس ذلك اللسان الرسمى الذى ترمز إليه بأعظم اليسر تأودات الخط العربى وتعاريجه المعقدة، على حين أن الجو الأجنبى الذى يتفيأه الوضع كله أمر تؤكده لغة صعبة محيرة وتضفى عليه درعا من وقايتها. ولا يلبث الدارس أن ينتبه رويدا رويدا إلى التباين المتناهى، والمختفى وراء القناع البهيج الزاهى. لا يلبث أن يتبين فيما تشهد عيناه مختلف أنواع العناصر القومية والإقليمية. ثم لا يلبث بمزيد من التحليل أن يكشف الأصل الأجنبى لكثير مما كان يبدو قوميا، ومع هذا فلا بد للباحث مهما تحرى الدقة والتمحيص من أن يشهد فى النهاية بقيام تلك الوحدة فى التكوين الروحى كما يشهد بقوة التكيف المدهشة التى تعرض العارية الأجنبية فى ثوب إسلامى أصيل لا يكاد أحد يستطيع معه تمييزها، وها نحن الآن نميط اللثام أكثر فأكثر عن العناصر غير العربية أو غير الإسلامية فى هيكل هذه الحضارة؛ فإن المساهمات المسيحية وشقيقاتها اليهودية الهللينستية والفارسية التى تزداد فى كل يوم بروزا لتصمد

واضحة جلية تميزها كل عين مدركة، وكيف لا وقد كان العلماء المسلمون الأول أنفسهم منتبهين إلى حد ما إلى اعتمادهم على علوم الأمم الأخرى غير الإسلامية. وكان التطور بتعاليم محمد (ﷺ) – على ما وراءها من ذخر هزيل من الحضارة العربية، ومواصلة النهوض بها إلى أن أصبحت قوام الثقافة الإسلامية وجهازها الذى ينادى بصحته الشاملة ويطبع بقوة لألائه الخاص الصريح كل فلذة مفردة يستحوذ عليها وكل فكرة مفردة يتقبلها – كان ذلك كله من أعظم مشاهد التاريخ فتنة وروعة».

خلاصة هذه الفقرة أن العبقرية الحقيقية فى الحضارة الإسلامية ليست عبقرية الخلق والإبداع، ولكنها عبقرية التنسيق بين الأصول الأجنبية المتباينة. وليس هذا «تأويلا» منا لنص كلامه، فهو يقوله صراحة فى صفحة (٤١١) من الكتاب حيث يقول: «ولكن أصالة الإسلام إنما تظهر بالضبط فى قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وفق حاجاته، وفى خلقه إياه خلقا جديدا يسبغ عليه طابعه الخاص، وفى نبذه كل مالا يقبل التكيف. ولا يكاد يستساغ تسمية الإسلام باسم الخلاق المبدع من حيث كون الإغريق خلاقين مبدعين فى القرنين الخامس والرابع ق. م. ولا من قبيل إبداع العالم الغربى منذ عصر النهضة، ولكن نكهته ظاهرة جلية فى كل شئ مسته عصاه السحرية».

وبصرف النظر عن كلمة «عصاه السحرية» التى يحاول أن يخفى تحتها تهجمه السافر على الحضارة الإسلامية، فإن أصل القضية كلها عنده أن المسلمين استعاروا فى بدء نهضتهم أشياء وجدوها نافعة لهم فى فارس وروما وغيرها من الجهات ... وعن عمد يقف بالتاريخ عند مرحلة الأخذ هذه، ولا يسير مع خطوات التاريخ كما يقتضى البحث العلمى النزيه ليرى كيف فعلت الروح الخلاقة بما استعارته من خارج كيانها من أشياء ...

فإذا كان الأخذ من الغير جريمة تصم صاحبها طيلة حياته بعدم الأصالة، فهل هذا هو رأيه الدائم فى جميع الأحوال؟! إننا على استعداد لاحترام رأيه حتى

ولو كان خاطئا لو أنه حافظ عليه وهو يقيس كل الحضارات ... فهل تريد أن تتأكد من صدق المقياس؟! تعال إذن نر كيف ينظر إلى الحضارة الغربية وأخذها من الحضارة الإسلامية:

يقول فى صفحة (٤٣٥): «وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى. فثمة الأطعمة والأشربة، والعقاقير والأدوية، والسلاح والدروع ونقوشها والفنون الصناعية والتجارية والبحرية، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية، ودع عنك الحديث فى المصطلحات العديدة فى الفلك والرياضة – فإن قائمة تدل على المدى الكامل لمساهمة الإسلام فى كل ذلك تستنفد صفحات عدة دون أن تبلغ ولو من بعيد درجة التمام، وإن نفس وجود العالم الإسلامى كان له أثر كبير فى صوغ التاريخ الأوربى والحضارة الأوربية. وكانت الحروب الصليبية، من كثير من النواحى، أعظم مغامرة أقدم عليها الإنسان فى العصور الوسطى وأبعدها أثرا. ذلك أن القصص الإسلامى والأخيلة الشعرية وفلسفة الغيبيات الإسلامية وجراءة المذاهب الصوفية الإسلامية، قد تركت جميعا آثارها ببلاد الغرب فى القرون الوسطى، ولا شك أن أعظم رجال اللاهوت وأعظم الشعراء فى القرون الوسطى الأوربية مدينون للإسلام بأكبر الفضل فى ناحيتى الإلهام والمادة جميعا ...».

لعلك تظن بعد هذا الاعتراف الباهر أنه قد اعترف بتأثير الإسلام فى الحضارة الغربية ...

إن كان فى نفسك هذا الوهم فاسمع قوله قبل ذلك مباشرة فى صفحة (٤٣٤): «عندما يحلل المرء الحضارة الغربية كما تبلورت إبان العصور الوسطى وعصر النهضة – ابتغاء مقوماتها الرئيسية – فإنه يلمس بغاية الوضوح التأثير المحدود (!!) لما كان بينها وبين العالم الإسلامى من اتصالات مستطيلة ولكنها سطحية شيئا ما. وقد يقال إن الحضارة الإسلامية ساهمت بقدر كبير من

التفاصيل، كما قامت بما يسمونه فى الكيمياء بدور المعادل الكيميائى، على أنها لم تؤثر فى البنيان الجوهرى للغرب. وربما كان وجه للمشاحة فى مدى صدق تفسير الحضارة الغربية الحديثة بانها استمرار للحضارة الكلاسيكية. ولكن من غير المعقول أن يبلغ الأمر بنا أن نتساءل عما إذا كان أى من عناصرها راجعا إلى الإلهام الإسلامى!!

أفى شك أنت، بعد، من «نزاهة» الكاتب، وروحه «العلمية» الخالصة فى تقدير الأمور؟!!

obeikandl.com